العـــاشقة الصغيرة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم العشيري

كانت الشمس تودع الدنيا فى صمت حزين ، حينما كانت « تهانى » الطفلة التى لم تتجاوز بعد التاسعة من عمرها ، تسير على رود فى حديقة المنزل الكبيرة يتبعها كلبها الصغير

ووصلت الطفلة بعد قليل إلى مقعد ناء مختفٍ بين الأشجار ، فجلست عليه وعندئذ التمعت فى عينيها الدعجاوين دمعتان لم تلبثا أن سقطتا على خديها

ونظرت إلى كلبها الصغير الجالس عند قدميها فى هدوء ، وهى تبسم بسمة فيها حزن الجدول جف ماؤه ، وأسى الزهرة ذبلت أوراقها ... ومرت لحظة ثم شرد بصرها ، وعلا السهوم وجهها الجميل الذى يبدو عليه شحوب عليل ، وشقاء ذليل

وظهرت فى رأسها تلك اللحظة صورة شاب وسيم سافر منذ وقت غير طويل إلى أسيوط حاملاً معه قلبها الصغير

وانثالت على ذهنها ذكريات وذكريات

ها هى ذي جالسة مع ذلك الشاب على أريكة تحادثه ويحادثها

ها هى ذى تمشى معه فى مماشى الحديقة ويدها فى يده

ها هى ذى تؤاكله والسرور باد عليها . ها هى ذى ترقص أمامه قائلة له : « أنظر ... إننى سأكون راقصة بارعة » . ها هى ذى تسقيه الماء من كوب فى يدها وعلى شفتيها بسمة سعيدة . ها هى ذي تباغته وترش الماء المثلج على وجهه فيجرى أمامها صائحاً مذعوراً . ها هى ذى ... ها هى ذى .

وينقضى وقت مديد ، والطفلة لا تزال تعيش فى ماضيها السعيد . ثم استفاقت بغتة لتلفظ بهذه الكلمات فى صوت خفيض كئيب شاك :

— لماذا لم تبق بجوارى يا حامد لأظل سعيدة ؟

والتمعت فى عينيها دمعتان أخريان !

ما أقسى الشقاء الذى تشعر به هذا المساء !

وراح قلبها يدق بقوة وشدة ، وراحت تستمع إلى دقاته وقد وضعت خدها على كفها الصغيرة الناعمة

ولم تكن تتذكر شيئاً فى هذه اللحظة ، فلقد نسيت كل شىء

وأخذ الليل يقترب ، ولكنها لم تحس باقترابه إلا عند ما سمعت خادمتها العجوز « كعب الخير » تصيح قائلة :

— أين أنت يا تهانى ؟ هيا فقد أقبل الليل

ومسحت دموعها بسرعة ، وقامت تمشى على مهل يتبعها كلبها

— مالك يا ست تهاني ؟

قالتها الخادم حينما رأت حزن سيدتها الصغيرة ووجومها . فلم تجبها تهانى

— هل ضربك أحد ؟

— . . .

— هل ضاع منك شىء ؟

— . . .

— لماذا لا تجيبين يا سيدتى ؟

فالتفتت إليها تهانى وقالت فى غضب :

— اصمتى ... لا تتكلمى ...

فصمتت الخادم وقد بدا الدهش على وجهها

* * *

عجيب أمر هذه الطفلة . لقد كانت تحب ... تحب شاباً فى الثالثة والعشرين. فلنرجع إلى الوراء قليلاً

منذ عام ونصف عام مات والدا « تهانى » وخلفاها تعيش مع عمة لها بالقاهرة . وفى منزل تلك العمة — وهو المنزل الذى تقيم فيه تهانى الآن — عرفت هذه الطفلة حامداً قريبها الطالب بإحدى كليات الجامعة . وكان يقيم مع أمه فى أحد طوابقه

وأخذا يلتقيان . كانت تنطلق إليه كل مساء فتجلس معه تحادثه . وكان حامد يحبها حب الأخ الكبير للأخت الصغيرة . ولذلك لم يكن يكره أحاديثها ولا يملها

وعن أى شىء كانت تحدثه ؟

كانت تحدثه عن الدجاج والبط الذى تربيه عمتها فوق سطح المنزل . وعن « بوبى » كلبها المحبوب . وعن الدروس التى تتلقاها فى مدرستها . وعن « أبلة » خديجة مدرسة الحساب التى يسمونها «بالغولة» وعن أشياء أخرى كثيرة من هذا الضرب

وازداد حب حامد لتهانى فبدأ يحضر لها الحلوى والشكولاته . وفى كثير من الأحيان كان يؤا كلها ويسير معها فى حديقة المنزل . وفى كثير من الأحيان أيضاً كان يمازحها ويلاعبها

وابتدأت تهانى تحب حامداً حباً لا تعرفه الطفلة ... حب امرأة لرجل أعجبها وراقها . ولم تعد حينئذ تستطيع الابتعاد عنه

وأصبح حامد الأمل الذى يرف فى حياة تهانى ، والنور الذى ينير دنياها ، والفردوس الذى تهرع إليه كلما اشتاقت إلى الفراديس . وإنها لتشتاق إلى الفراديس دائماً ... دائماً ...

ومرت الأيام مسرعة . لا تعرف اللغوب ولا الونى وتخرج حامد فى كليته فأنشأ يبحث عن وظيفة يشغلها إلى أن عثر على وظيفة فى أسيوط

وراح حامد يتأهب للذهاب إلى أسيوط . وكان سعيداً فأنسته سعادته « تهانى » التى كادت تجن حينما علمت أنه سينأى عنها

وعرف الحزن طريقه إلى نفس العاشقة الصغيرة وأرمض الأسى فؤادها غير أنها تماسكت وصبرت ...

ومضى يومان ، وفى اليوم الثالث أتاها حامد ليخبرها بعزمه على الرحيل إلى أسيوط بعد قليل

— وستتركنى هنا وحدى يا حامد ؟

— وحدك ؟ ! وهل نسيت عمتك وخادمتك « كعب الخير »

— ؟ ؟

— فلتكونى قوية يا عزيزتى

— لا أستطيع

— من أجلى . ومن أجل مستقبلى

— ولكن ... ولكن ...

وخنقها البكاء فلم تستطع أن تقول ما تريد أن تقول ، واقترب حامد منها وهو يقول :

— لا تبكى : وإلا أغضبتنى

فغيضت عبراتها بصعوبة . ولاذت بالصمت

ووضع حامد يده على كتفها وقال لها للمرة الثانية

— فلتكونى قوية يا عزيزتى

فرفعت تهانى بصرها إليه بعد هنيهة . وتشددت وهى تتمتم :

— حسن، سأكون قوية. هات خدك لأقبلك قبلة الوداع

وقبلته قبلة الوداع وهى تشعر بشىء يبكى فى أعماقها ويئن . . وسرت دقائق ثم . . ثم رحل حبيبها !

* * *

... فى صباح اليوم التالى استيقظت تهانى من نومها على عَندلة بلبل ... وجلست على وساد سريرها وقد عاودتها أشجانها وآلامها .

وانقضى وقت قصير ، ثم دخلت عليها عمتها ، وهى امرأة نَصف ليست بالجميلة ولكنها ليست بالدميمة .

— هل استيقظت يا تهانى ؟

— أجل يا عمتى .

— حسن ، قومى يا ابنتى لتستعدى للذهاب إلى المدرسة .

وخرجت العمة من غير أن ترى ما يبدو على تهانى من حزن وكآبة .

وانطلقت تهانى ذلك الصباح إلى مدرستها وهى تشعر بالوحدة والوحشة . وحينما انقلبت إلى منزلها فى المساء كان شعورها بالوحدة والوحشة يزداد ويزداد

وعزفت عن الطعام ، واجتوت الحياة ، ولزمت الحيرة نظراتها ، وغشى الذهول بسماتها .

ودرجت الأيام ، وتهانى حزينة كئيبة أسوانة وفى ذات يوم سألتها عمتها :

— مالك يا تهانى ... إنك قد تغيرت كثيراً ؟

فبكت تهانى وأخبرت عمتها بأمرها ، أخبرتها به فى صراحة طفلة ساذجة. فاحتضنتها العمة ووضعت رأسها على كتفها ، ثم ربتت على ظهرها فى حنان وحدب .

— ولم لم تخبرينى بذلك من قبل ؟

— لم أكن أقدر !

— يالك من مسكينة .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك الآن ؟ إن حامداً فى أسيوط ، ونحن فى القاهرة .

فلجت تهانى فى البكاء ولم تجب !

ومضى يوم مديد ثقيل. وفى اليوم الثانى مرضت العاشقة الصغيرة ، فلزمت سريرها تهذى بكلام لا يفهم منه إلا أنها تشتاق إلى الحبيب النازح النائى ... وخافت عمتها عليها ، فكتبت إلى حامد تصف له حالها وتطلب إليه أن يحضر ...

وحضر حامد من غير إبطاء ، وما إن رأته تهانى حتى وثبت من سريرها وهرعت إليه فرحة لاهثة .

وحملها حامد على ذراعيه ، فتعلقت بعنقه وأخذت تقبله وتقبله ... ثم تمتمت :

— حامد ... هل أنت حقاً الذى أرى أم ...

ولفرط فرحها لم تستطع أن تتم كلامها !

وأعادها حامد إلى سريرها وجلس بجوارها يحادثها . ونسيت تهانى آلامها ومرضها وهى تستمع إليه . وبدأ السرور يشيع فى وجهها ... ثم ... ثم بكت فجأة. بكت من شدة السعادة والتصقت بحبيبها وهى تنظر إليه من خلال دموعها نظرة كلها غبطة ، وعلى شفتيها بسمة تفيض بالهناء

— وستبقى بجوارى يا حامد أم سترحل ثانية ؟

فقال حامد وهو يربت على خدها بيده ، ناظراً إلى أهداب عينيها المخضلة بالدمع :

— لا يمكن أن أبقى هنا يا عزيزتى ، وإلا أضعت وظيفتى

فاكتأبت وغاضت بسمتها ، وهمت أن تتكلم ، غير أن حامداً سألها :

— هل يسرك أن أكون متعطلاً ؟

— كلا . وكيف يسرني أن تكون متعطلاً ؟

— إذن دعيني أعد إلى وظيفتي وعليك بالصبر

فأطرقت برأسها في صمت !

ورفعت رأسها فجأة بعد قليل . ثم طلبت منه أن يدني أذنه من فمها . فلما فعل همست فيها بصوت مرتبك لا يكاد يسمع ، وحمرة الخجل تصبغ وجهها

— هل تنوى أن تتزوج قريباً ؟

وفهم شيئاً فقال لها وهو يضحك :

— كلا . لن أتزوج قريباً لأنني أريد أن تكوني أنت زوجتي

وساد الصمت ... وبعد دقائق قالت تهاني لحامد وهي تنظر إلى حجرها :

— يمكنك الآن أن تعود إلى أسيوط

* * *

وعاد حامد إلى أسيوط . وعادت تهاني تقاسي آلام فراقه . غير أنها استطاعت أن تصبر على تلك الآلام هذه المرة

وبدأت العاشقة الصغيرة تحلم بمستقبل سعيد

ها هي ذي قد أصبحت زوجة لحامد ، ها هي ذي تعيش معه ، ها هي ذي تقبله في الصباح حينما يهم بالخروج من المنزل ، وفي المساء عند ما يرجع إليه ، ها هي ذي تطبخ له طعام « السباخ » الذي يحبه ... ها هي ذي ... ها هي ذي ...

وأخذت تهاني تدعو الله أن يحقق حلمها . وكانت في كثير من الأحيان تضع كلبها الصغير على صدرها وتهمس في أذنه : « سوف تراني غداً أيها الكلب وقد أصبحت زوجة لحامد »

ولم تعد الطفلة تهتم بشيء كما تهتم بغدها وبما سيكون فيه من سعادات ولذات وأفراح .

ولذلك امتلأت حياتها بالآمال والأحلام

وذاقت تهاني طعم السهاد مرات كثيرة ... ولكن أي سهاد هو هذا الذي ذاقت طعمه ؟ ! إنه السهاد الطويل القاسي الثقيل ... سهاد العاشقين .

وأدبرت أسابيع وأسابيع ... والطفلة صابرة لا تشكو ، قوية لا تضعف ... وفي يوم من الأيام شعرت برغبة شديدة ملحة في البكاء . فلجأت إلى ركن قصي بعيد من أركان حديقة المنزل ، وجلست تبكي بحرقة

ولكنها انقطعت عن البكاء بغتة وراحت تسأل نفسها : « لماذا تبكي ؟ » وذكرها هذا السؤال بشيء فعادت تبكي

وبللت الدموع خديها فمسحتها بكم ثوبها . وجاء إليها كلبها في تلك اللحظة ، فأمسكت به ، ووضعته على حجرها ، ثم مالت عليه تكلمه :

— إنني شقية يابوبي ، شقية جداً ، وقلبي يوشك أن يختنق أو يحترق . كم أحن إلى الراحة ! كم أحن إلى الراحة !

وصمتت لحظة ثم أردفت :

— لقد صبرت على شقائي طويلاً يا بوبي ... ويخيل إلى الآن أنني لن أستطيع أن أصبر أكثر من ذلك . إني لأود أن أجد حامداً بجواري هذه اللحظة لأشكو إليه حالي

ولكن هيهات أن تجد حامداً بجوارها . فحامد في أسيوط : وهي في القاهرة ، يالها من طفلة شقية يالها من عاشقة معذبة !

* * *

شيء واحد أسعد « تهاني » في تلك الأيام البائسة الأليمة ، ووضع في قلبها الشجي الأسوان

قليلاً من الطمأنينة والهدوء . وهو هذه الرسالة القصيرة التى أرسلها حامد مع كتاب بعث به إلى عمتها

« زوجتى العزيزة تهانى هانم ...

أقبلك ألف قبلة . وبعد فلتعلمى أنى لا أنساك ، وأنى مشتاق جداً إلى رؤيتك ... أملى أن تكونى سعيدة ، وتقبلى تحياتى الحارة

زوجك : حامد »

لقد كادت تجن من فرط الفرح حينما قرأت تلك الرسالة ، « فلتعلمى أني لا أنساك وأنى مشتاق جداً إلى رؤيتك » . ما أجمل أن يقول لها حامد هذه الكلمات !

ووضعت تهانى رسالة حامد تحت وسادة سريرها بعد أن أشبعتها لثماً وتقبيلاً ، ثم أحضرت ورقة وقلماً وكتبت هذا الخطاب :

زوجى العزيز حامد أفندى

أقبلك مليون قبلة ، لا ألف قبلة فقط ... وبعد فقد وصلتنى رسالتك الرقيقة ، وسررت بها كثيراً وأحب الآن أن تعرف أن صورتك المحبوبة لا تفارق مخيلتى ، وإنى لأتمنى أن تعود إلى قريباً ، لأجالسك وأحادثك ، وأؤاكلك ، ولأرش الماء على وجهك .

زوجتك المشتاقة إليك جداً « تهانى »

وعزمت على أن ترسل هذا الخطاب إلى حامد ، من غير أن تعلم عمتها بذلك ... وقد فعلت ...

وفى اليوم الذى أرسلت فيه ذلك الخطاب ، جلست مع كلبها فى ركن حديقة المنزل البعيد ولأول مرة منذ مدة طويلة تكلمت فى سعادة :

« إنى سعيدة اليوم يا بوبى ، سعيدة جداً ، فقد بعث حامد إلىّ برسالة ، وبعثت إليه برسالة . هل تعلم أنى بدأت أحب الحياة ، وأستعذب آلام الحب ؟ ! »

* * *

وتولت ثلاثة أشهر والحبيب لا يبرح غائباً . وفى ذات يوم عادت تهانى من مدرستها . فلما رأتها خادمتها « كعب الخير » دنت منها وقالت لها وهى تبتسم :

— عندى لك يا سيدتى خبر سار

— ما هو ؟

— سيدى حامد قريبك سيقدم غداً إلى هنا ...

فألقت تهانى بكتبها وكراساتها على الأرض . وأخذت ترقص وتغنى وتصفق فى سرور وحبور . غير أنها كفت عن الرقص والغناء والتصفيق بغتة حينما سمعت خادمتها تتم كلامها قائلة :

— وسيقضى هنا ثلاثة أيام يعقد قرانه فى خلالها على قريبة له تقيم بالزمالك

يعقد قرانه على قريبة له تقيم بالزمالك ! . . . وحملقت تهانى فى وجه كعب الخير وقد ظهرت عليها الدهشة . ثم هتفت فى صوت خافت متهافت :

— أحق ما تقولين ؟

— وهل تظنين أننى أكذب عليك ؟

قالتها الخادمة وهى تعجب من الدهش الذى يبدو على سيدتها الصغيرة ... فتولت تهانى من غير أن تنبس !

أفى مثل ومضة البرق يتحطم الأمل الذى كانت تعيش به !

أفى مثل طرفة العين يتهدم المستقبل الذى كانت لا تزال تبنيه !

يا لشقاء جدها ...

ودخلت غرفة نومها . وجلست على السرير وصدرها يعلو ويهبط بشدة وعنف وبصرها ذاهل حائر شارد . ثم سألت نفسها :

أهى تحلم ؟

وبسمت بسمة حزينة مرة : كلا إنها لا تحلم فقد عادت من مدرستها منذ قليل

وأحست أن الدنيا تظلم ، وأن الجو يمتلئ بضباب أسود قابض . وخيل إليها أن روحها قد سلبت منها ، وأنها لم تعد تحيا

وتقضت برهة ...

ها هى ذى تنهض عن سريرها وتخطو فى الغرفة بضع خطوات . أواه .. إنها لتكاد تقع على الأرض من شدة الإعياء الذى سببته لها الآلام التى هجمت عليها

ها هى ذى تقف ... آه ... إن أنة مذبوحة باكية تنساب من بين شفتيها المرتعشتين

ها هى ذى تفكر . . . أوه . . . لقد تألقت فى عينيها دمعة

وتقضت برهة أخرى

لقد رجعت المسكينة إلى سريرها ... فألقت بنفسها عليه . وراحت تجهش بالبكاء .

يا لها من طفلة شقية . يا لها من عاشقة معذبة !

* * *

... فى اليوم التالى قدم حامد . وحينما علمت تهانى بقدومه أسرعت بمبارحة المنزل من غير أن تراه أو يراها

لم بارحت المنزل ؟ ... وإلى أين ... ؟ ... لا يعلم أحد ... ومضى النهار دون أن تعود الطفلة إلى بيت عمتها . وفى ساعة متأخرة من الليل رآها بعض رجال الشرطة جالسة على إفريز شارع من شوارع القاهرة وهى تبكى وتنتحب !!! .

عبد الحليم العشرى

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الكاتب

أبى العـــلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربي فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هـذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

صدرت الطبعة الجديدة من :

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

« ومن إدارة الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً